

الفصل الخامس

نظريات الصحة النفسية :

أولاً: المدرسة العضوية (Organism School):

عدت هذه المدرسة الاضطرابات النفسية والعقلية ناشئة عن اضطرابات تصيب المخ، ويبدو ذلك الرأي واضحاً عند الطبيب الألماني وليم جريسنجر (William Griesinger) (١٨١٧-١٨٦٨م) في مؤلف له نشر عام ١٨٤٥، ويعد إميل كرايبلن (Emil Kraepelin) (١٨٥٦-١٩٢٦) أحد تلاميذ جريسنجر، المؤسس الحقيقي للمدرسة العضوية، وبظهور هذه المدرسة حظي المرض النفسي من العناية ما كان يحظى به المرض العضوي، لاسيما بعد اكتشاف الأسباب العضوية لبعض الاضطرابات النفسية، وعمل التصنيف المبدئي على دفع الأبحاث التجريبية في مجالات التشريح والكيمياء الحيوية وغيرها من العلوم لتقصي الأسباب العضوية في باقي الأمراض النفسية، وهذا التصنيف المبدئي للاضطرابات النفسية وضعه كرايبلن واتخذته التصنيف الحديثة أساساً لها وتوالت الدراسات التشريحية في ذهانات الشيوخ وبعض أنواع التخلف العقلي واحدة بعد أخرى مستغلة معطيات المرحلة الوصفية، وأهتم كرايبلن بدراسة الأعراض السريرية، ولم يعر اهتماماً للحالات النفسية الداخلية، ولم ينتبه إلى اللاشعور، أو إلى دينامية العوامل النفسانية في نشوء المرض العقلي.

ثانياً: المدرسة النفسبيولوجية (Psychobiology):

اهتمت المدرسة النفسبيولوجية بدراسة الفرد من حيث هو كائن حي متكامل ذو نشاط فيسيولوجي، أي أنها دراسة بيولوجية نفسية، ومنذ أواخر القرن التاسع عشر أستخدم اللفظ بمعانٍ مختلفة، إلا أن أغلب استخدامه أقتصر على مدرسة أدولف ماير (Adolf Meyer). ويمكن وصف المدرسة النفسبيولوجية بأنها مدرسة كلية جامعة وشاملة (Holistic)، فقد أكد ماير (Meyer) (١٩٥٠-١٩٦٦) ضرورة دراسة البناء والميول الوراثية وخبرات الحياة وضغوط البيئة جميعاً إذا كانت الغاية أن نتبع أصل اضطراب معين أو فهمه، أي يمكن فهم السلوك فهماً حقيقياً إذا درست الشخصية الكلية والتاريخ الكلي لحياة الفرد، واهتم ماير (Meyer) بالفرد نفسه، وأقام نظريته على وحدة الفرد بوصفه وحدة جسمية عقلية في مجتمع وظروف بيئية، وعلى الربط بين الأوجه النفسية والبيولوجية في تحليل أي عرض جسمي أو نفسي أو عقلي. والمرض عنده هو الاستجابة النفسبيولوجية التي يستجيبها الفرد للظروف الحالية وعلى أساس عاداته في التوافق، وعلى أساس ما تقدم يبدو أن لا فرق لدى ماير بين المرض العقلي أو النفسي أو الجسمي، ولا بد من الإشارة إلى أن أبرز ما قدمته المدرسة النفسبيولوجية من فائدة للطب النفسي تركز في الأمراض السايكوسوماتية وفي الاهتمام بالإنسان الفرد.

ثالثاً: مدرسة التحليل النفسي (Psychoanalysis):

١- نظرية فرويد (Freud):

التي تمثل نظريات المقاومة والكبت واللاشعور، وقيمة الحياة الجنسية في تعليل المرض وأهمية خبرات الطفولة - العناصر الأساسية التي يتكون منها البناء النظري لنظريته، ويقسم فرويد الشخصية إلى ثلاثة مركبات رئيسة هي:

١. **Id**: وتمثل مصدر الطاقة الغريزية ومخزن الأفكار والدوافع غير المقبولة، ويتحكم بها مبدأ اللذة.

٢. **Ego**: هو المركب العقلاني الواعي الذي يتحكم به مبدأ الواقع.

٣. **Super ego**: تظهر كوجهة ضرورية لتطوير الـ (ego) وتعكس قبول الطفل لقيم وأخلاقيات المجتمع.

وطبقاً لفرويد، فإن الأمراض العصابية عبارة عن اضطراب يحل بالأنا، فليس من الغريب إذن أن يفشل الأنا حينما يكون ضعيفاً وغير مكتمل النمو وغير قادر على المقاومة في معالجة المشكلات، كما وصف العصابي بوصفه اجتماعياً على نحو مفرد، أي إن ضميره نقدي جداً، ويتوقع الكثير حول الذات والآخرين، ويطور الشخص الكثير من الإجراءات الدفاعية لحماية نفسه من نقاط ضعفه واحباطاته.

وفي تصويره لكيفية نشوء المرض النفسي، يأتي فرويد بمثال بسيط، إذا نشأ دافع ما في نفس المرء ولكن إعترضته ميول قوية يتوقع حدوث الصراع النفسي على النحو الآتي، ذلك أن القوتين الديناميتين - ويمكن أن يطلق عليهما مؤقتاً (الغريزة) و(المقاومة) ستصارع أحدهما الأخرى مدة من الزمن في ضوء الشعور الكامل حتى تنحى الغريزة وتستبعد منها شحناتها من الطاقة، ذلك هو الحل السوي، إلا أن الصراع في العصاب يؤدي إلى نتيجة مغايرة، إذ يتفهم (الأنا) بعد أول صدمة يتلقاها في صراعه مع الدافع المحظور، فيمنع الدافع من أن يصبح شعورياً ويحول بينه وبين الانصراف الفعلي المباشر، ولكن الدافع يبقى مع ذلك محتفظاً بكامل شحنته من الطاقة، وأطلق فرويد على هذه العملية (الكبت)، كما أن ما يكبت لا يفقد بل يستمر في الضغط لمحاولة الإشباع، ويزداد شعور الأنا بالتهديد، فتستدعي الأنا آلياتها الأخرى وهي مجموعة أخرى من الحيل الدفاعية تساعد في التغلب على محتويات الـ (Id)، وباستمرار هذا الصراع تفتقد الحيل الدفاعية قدرتها على حماية الأنا، فتقع صريعة الاضطراب النفسي.

ويرى فرويد أن الشخصية السليمة لا يمكن أن تتحقق ما لم يتغلب الفرد على التثبيت (Fixation) في الطفولة ويبلغ مرحلة النمو التناسلي الجنسي، كما تتحقق الشخصية السليمة في الحالة التي يكون فيها الـ (Super ego , Ego , Id) في انسجام وتوازن وتعاون ويغدو الحب ممكناً على أسس ناضجة.

٢- نظرية أدلر (Adler) (١٨٧٠-١٩٣٧):

الذي أسس نظريته للسلوك الإنساني على مشاعر النقص، إذ يرى أن كل الأفراد معرضون للشعور بالنقص سواء كان حقيقياً أم متخيلاً، بدنياً أم عقلياً، ويرى أدلر أن الإحساس بالنقص وليست الجنسية المكبوتة هو الذي يتضمن سوء التكيف ولهذا السبب فإن الأفراد يبحثون عن طرائق لتعويض نقصهم وتتأسس صيغ انجازهم عن طريق التوافق المبكر. وبمرور الزمن تصبح هذه النماذج أسلوب حياة الفرد أو السمات المميزة جداً له، وتنتج اضطرابات الشخصية من الإحساس العميق بالنقص والأشكال المبالغ بها للسعي وراء التفوق وربما يطور الشخص التعويضات، والتعويضات المفرطة غير الصحيحة وربما يكون هدفه التوجيهي غير واقعي، وأناني جداً، وعلى هذا فالشخص العصابي أو الشخص الذهاني حسب رأي أدلر، هو الذي يمتلك أسلوب حياة خاطئ كان قد اكتسبه عن طريق الاتصال بوالديه اللذين يكونان أما قد رفضوه أو أهملوه أو دلوه خلال طفولته المبكرة.

ويرى أدلر أن العصابي جبان ويتجنب مواجهة متطلبات العيش، ويقتنع بأن معاناته والصعوبات التي يواجهها هي أكبر من معاناة أي شخص آخر، ولهذا السبب يضع نفسه جانباً كونه شيئاً ما خاصاً واستثنائياً. ومن الناحية الجوهرية فإن العصابي شبيه بالطفل النامي، ولا تتطور عنده العواطف الاجتماعية جداً، إذ أن العصابي غير حساس لحاجات ومشاعر الآخرين، ويؤدي الناس دائماً من دون إدراك أنه قام بذلك، ويرى أدلر أن الأفراد الذين يعانون اضطراباً في صحتهم النفسية تكون أهدافهم لا شعورية، ولا يعرفون البدائل المتاحة أمامهم عندما يواجهون مواقف الحياة المختلفة، كما أن القلق وهو مظهر من مظاهر اضطراب الصحة النفسية ينشأ بسبب انعدام الأمن النفسي الذي يحدثه نتيجة لشعور الفرد بالقصور أو النقص.

٣- نظرية يونج (Jung) (١٨٧٥-١٩٦١):

فإن التاريخ والأساطير والطقوس البدائية والرموز تؤدي دوراً في نظريته للطبيعة البشرية، وميّز بين نوعين من اللاشعور: لاشعور شخصي وهو مماثل لللاشعور في نظرية فرويد، ولاشعور جمعي (Collective Unconscious) يحوي التجارب والأفكار الموروثة من الأجيال السابقة، ويمثل طرائق التفكير البدائي للعقل البشري، ويتحدث يونج عن الشذوذ بطرائق عدة فهو يقبل بصورة عامة فكرة الشذوذ بوصفه إفراطاً أو نقصاً في الوظيفة، ولكنه يهتم أيضاً بعدم التوازن بين عناصر مختلفة للشخصية، ويصر بأنه ولا واحدة من أنظمة الشخصية يمكن تأكيدها بإفراط على حساب الأنظمة الأخرى. وينبغي ملاحظة أن الشذوذ الذي أهتم به يونج تماماً هو قلة الوحدة والتكامل في الشخصية.

إن الأمراض العصابية (طبقاً ليونج) عبارة عن محاولات غير ناجحة للتكيف مع الواقع، ونسب إلى الذكريات المكبوتة في اللاشعور دوراً مهماً في تكوين العصاب، إلا أنه يرى أنها ليست متصلة بالرغبات الجنسية الطفولية، بل تتعلق بجميع مشكلات الإنسان التي لم تحل، ويرى يونج بأنه إذا ضعف الشعور نتيجة العقد والصراعات وعدم التوافق وفقد جزء من الطاقة (Ego) نحو مراحل بدائية وتسربت طاقة اللاشعور عبر ثغرات الشعور فإن ذلك يكون مظاهر

العصاب، أما في الحالات الشديدة التي يتدفق فيها اللاشعور إلى الشعور فيكونّ الذهان، الذي تبدو فيه الكثير من محتويات اللاشعور.

وتستلزم الشخصية السليمة (حسب يونج) كفاً لا نهاية له لكي يتخطى الفرد تنشئته، أي تدريبه لكي يغدو مواطناً، ولكن يكتشف قدراته الأدائية المكبوتة ويعبر عنها، وينشأ توحد قدرات التفكير والشعور والحدس والحسم عن طريق الالتزام بأهداف جديدة للوجود.